ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

إسهامات المبرّد وابن جنّي في الدّرس البلاغيّ العربيّ

contributions of Al-Mubarrad and Ibn Jinni in the arabic rhetorical lesson

[1]هاجر بوعكاز * ، [2] سفيان بوعنينبة

[1] جامعة سكيكدة (الجزائر)، bouakkazhadjer1591@gmail.com

[2] جامعة سكيكدة (الجزائر)، chehd07032011@gmail.com

تاريخ الإستلام: 25/ 08/ 2021 **تاريخ القبول**: 06/ 09/ 2022 **تاريخ النشر**: 30/ 09/ 2022

ملخص:

البلاغة العربيّة من العلوم الّتي لها شأن كبير في الدّرس العربيّ، وتهتمّ بحسن نظم الكلام وتركيبه وتشكيله وجماله، وقد لزمت الشّعر والنّثر، لكن كان القرآن الكريم أكثر الخطابات الّتي بنى العلماء عليها مباحثها، واستنبطوا أركانها وقواعدها، وذلك للخاصيّة البيانيّة واللّغويّة الّتي احتواها هذا الكتاب.

يهدف هذا المقال إلى محاولة معرفة الإسهامات البلاغيّة لعلماء العربيّة، مخصّصين الذّكر على "المبرد، وابن جنّي"، وقد خصّصنا هذين النّموذجين، لمجيئهما في بداية التّأليف البلاغيّ، ولكونهما من الموسوعيّين العرب الّذين عُرفوا بتعدّد إسهاماتهم العلميّة في مختلف علوم العربيّة، وكانت أهم النتائج المتوصل إليها، أن العالمين قد كانت لهما إضافات جديدة، لم يسبق إليها، فكانت الجدة في مباحث التشبيه وأضرب الخبر والكناية للمبرد، وشجاعة العربية، وقضية اللفظ والمعنى لابن جني

الكلمات المفتاحية: الإبداع، ابن جني، البلاغة العربية ، الطرافة، مباحث البلاغة، المبرد.

***

Abstract:

Arabic rhetoric is one of the sciences that have a great importance in the arabic lesson,it is concerned with poetry and prose, but the holy Quran was most of the discourses on which scholars discussed, and they deduced its pillars and rules, due to the rhetorical and liguistic characteristic that this book contained. This article aims to try to know the rhetorical the contributions of arabic scholars especially Ibn Jinni and Al-Mubarrad. We have devoted these two models because they come in the begining of rhetorical composition , and to the fact that they were among the arab encyclopedists who were known for their numerous scientific contributions in various arabic science. The novelty in the simile topics, the goodness and the euphemism for Al-Mubarrad, and yhe issue of pronunciation and meaning of Ibn Jinni

Keywords: .*creativity, Ibn jinni ,Arabic rhetorical, the rhetorical investigations. Novelty. Almubarrad,*

* المؤلف المرسل.

I. مقدمة

لا يمكن الحديث عن إسهامات "المبرّد" (210-285ه) و"ابن جنّي" (322-392ه) في الدّرس البلاغيّ، دون المساس في حفريات نشأة هذا العلم وتطوّره ونضوجه واستوائه علما من علوم العربيّة، وتمتدّ هذه الحفريات من الجاهليّة إلى عصور زمنيّة متقدّمة، قُدّرت بسبعة قرون كاملة، عرف فيها اللّسان العربيّ كغيره من الأمم سنّة التّجديد والتّطور الخاضعة لناموس الزمن.

ولأنّ الأمّة العربيّة أمّة شعر، تنسج وتسبك من الألفاظ معاني القصيدة وفق تشكيل جماليّ، وقريحة إبداعيّة وأدبيّة حَسُنَ نظمها وتأليفها، جاءت البداية الحقّة لملامح أو بوادر التّفكير البلاغيّ فيه، «ونكاد لا نشكّ في أنّ العرب الأوائل كانوا مدركين ولو عن طريق الانطباع والفطرة لجملة من خصائصه النّوعيّة ولا سيمّا ما يتعلّق منها بأهميّة البعد اللّغويّ فيه والطّرق الّذي يتشكّل حسبها هذا البعد» (حمادي، 1981) . فالبحث البلاغيّ في الفترة الجاهليّة كان منعدما انعداما تامّا، إنّما سجيّة العربيّ الأصيلة المفطورة على سلامة الذّوق، نبّهته إلى فورقات في بنية الكلم، وفي طريقة التّشكيل اللّغويّ، بمظاهره الجليّة في لغة أشعارهم وقصائدهم.

لقد كانت هذه الفروقات موضع الدرس البلاغي ومباحثه، فبرزت ثلة من علماء اللغة العربية، يبحثون في جمال وفصاحة الكلمة وبلاغتها وشرطيهما، إلى مسائل أكبر شأن، كمباحث البيان والمعاني والبديع.

لقد جاء المبرد وابن جني في بداية التأليف البلاغي العربي، وقد تجلت في مصنفاتهما ذرر بلاغية، مكثث فوائدها ومسائلها إلى يوم الناس هذا، فكيف تجلت إسهماتهما في الدرس البلاغي؟ وهل أفاد الدّرس البلاغيّ من إضافاتهما؟ وهل أعادوا مكرور الحديث في مباحث البلاغة؟ أم كانت لهما نواحي الجدة والطرافة فيما قدماه؟

إن هذين العالمين من كبار شيوخ العربية، وأكثرهما تصنيفا وشهرة، لذلك نفترض أنهما قد قدما المزيد والجديد للبلاغة العربية والذي لم يقله السابقون والمعاصرون لهما من علماء العربية.

لقد كان هذان العالمين من العلماء الموسوعيين العرب، وبالتالي فإن هذه الخاصية تجعلهما مؤهلين للإبداع والسبق في مباحث البلاغة.

يهدف هذا المقال إلى محاولة كيف بدت مباحث البلاغة العربية في بديات تأليفها، ومعرفة من كيف تطور هذا الدرس بين علماء العربية، كما يهدف إلى التأكيد على مقولة ان الدرس البلاغي العربي، درس غير جامد، قد عرف التطور والتجدد عبر أزمنة مختلفة.

وقد اتبعنا منهجية محددة؛ فانطلقنا من البدايات الاولى للدرس البلاغي، وكيف تطور مصطلح البلاغة العربية مع علماء العربية الذي جاءت لمح مباحث البلاغة في مصنفاتهم، ثم عرضنا على ما قدمه المبرد في مسائل البلاغة، مفصلين القول عند مباحث (التشبيه وأضرب الخبر، والكناية)، ثم عرضنا للعالم اللغوي الثاني وهو ابن جني، وكيف جاء عنده الدرس البلاغي، وماذا قدمه، لنصل إلى نتائج البحث والتي من خلالها، كشف عن الصنعة البلاغية الفريدة، والطرافة ومكمن الإبداع في ما قدماه كل من العالمين متن الدراسة

أولا: ملامح التفكير البلاغي العربي

بعد مجيء القرآن بما ضمّه من بيان، تزاحمت قرائح أدبيّة وفكريّة مختلفة المشارب حوله، تستزيد معرفة حقائق هذا النّصّ الرّبانيّ المقدّس، انطلاقا من لغته الّتي سحرت العربيّ وأحرجته في أسمى ما يملك وهو، الشّعر، فكانت بلاغة القرآن وما تنطوي عليه من أسرار بيانيّة، إضافة إلى قضية **الإعجاز**، الباعث الأكبر في نشوء مذاهب أبدت حركة أدبيّة هامّة، كان لها الأثر الكبير في صناعة تاريخ هذا الفنّ.

فنجد من بين هذه الدّراسات كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (-210ه) ، والذي نستأنس من عنوانه تطرّقه إلى قضيّة هامّة في صميم البحث البلاغيّ وهي "المجاز"، كما نجد طائفة المفسرين، والّذين انصبّ اهتمامهم في تفسير ألفاظ القرآن، وتوضيح معانيه، وتبيان مقاصده، فنجد "جار الله محمود بن عمر الزّمخشري" (467هـ 538ه) صاحب كتاب الكشّاف، والّذي يعدّ من أهم ما ورثته الحضارة الإسلاميّة في التّفسير البلاغيّ للقرآن، إذ جمع فيه الكثير من فنون البلاغة، أمّا فرقة المتكلّمين فقد كانوا أصحاب الطّول في بحثهم عن قضيّة الإعجاز القرآنيّ، وقد أثمرت جهودهم بمؤلفات خدمت الدّرس البلاغيّ، فنجد "أبو عبد الله بن يزيد الواسطي" (-306ه) صاحب كتاب "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" إذ ينمّ عنوانه من تناوله الخصائص اللّغويّة، الّتي جاء بها القرآن وأثبت من خلالها إعجازه واستحالة النّظم على منواله، ضف إليهم الجاحظ وما قدّمه للبلاغة العربيّة في كتابه النّفيس البيان والتّبيين (مطلوب، 1999)

لننتقل إلى حقل اللّغويّين والنّحاة، والّذين كانت لهم حمية على لغتهم كحمية الجاهليّة الأولى، فخدموها وقدّموا إشارات وملامح في تصانيف كتبهم، أفادت الدّرس البلاغيّ، تظهر هذه الحمية في مختلف الصّراعات الأدبيّة الّتي أوردتها كتب الأدب، بين هذه الطبقة وطبقة الشّعراء، الّذين كانوا يخرجون عن نمطية اللّغة ويكسرونها، فكان كلّ همّهم قول شعر أصيل وجميل غير مكثرتين بالقاعدة النّحويّة أو المعياريّة، وهذا ما كرهه النّحاة فيهم وأعابوه عليهم، فنجد منهم المبرّد في كتابه الكامل، وابن فارس في كتابه الصّاحبي، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه الدّلائل والأسرار (مطلوب، 1999)

أما في حقل الشّعراء والكتاب، فيطالعنا مصطلح "الحوليات والمنقّحات"؛ أين كان الشّاعر يقعد مع قصيدته ينقّحها، ويتأمّل مواطن الحسن والرّداءة فيها، وكان "زهير بن أبي سلمى" رأس هؤلاء الشّعراء، كما نجد الشّاعر العبّاسيّ ابن المعتز (-296ه) بكتابه "البديع" طفرة بلاغيّة هامّة، بما حواه من أصناف بديعيّة مختلفة، جَمَعَها من كلام العرب، ومن الكُتّاب نجد "عبد الحميد الكاتب" (-132ه) و"ابن المقفع" (-143ه)، وحتى فلاسفة العرب كان لهم إسهامهم الخاص في الحقل البلاغي على غرار "ابن سينا" (-428ه) في رسالته في معاني الشعر، و"ابن رشد"(-595ه) في تلخيصه لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس (مطلوب، 1999)

1. تطور مصطلح البلاغة العربية (مرحلة التأسيس)

تطَوَّر البحث البلاغيّ نتيجة العوامل السّالفة الذّكر، وسنرصد فيما يلي أهمّ المؤلفات الّتي جاءت قبل "المبرد" و"ابن جني"، والّتي نستشعر معها بداية التّفكير الفعليّ المثمر للبلاغة العربيّة، إذ أوّل هذه المفاهيم نجد **مصطلح "المجاز" في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة ت (210ه)**؛ يعدّ هذا الكتاب أهمّ ما وصلنا في هذه الفترة، والّذي ينمّ عنوانه عن صلته بالبحث البلاغيّ، «من شأنه أن يهيّئ الكتاب لأن يكون من أوّل المباحث العربيّة في قضيّة الصّورة الفنية، وطرق أدائها، والأسس النفسية التي ترتكز عليها» (حمادي، 1981) . أي أنّ المجاز عُني به هنا كل ما هو مناقض للحقيقة، لكن هذا المصطلح بقي ضيّقا في الحدّ والمفهوم، ولم يأت بصورة واسعة، ترصد كلّ نواحي علم البلاغة الواسع؛ «يكاد [كتاب المجاز] يخلو من الصورة الفنية ولا تعدو المباحث المتعلقة بها بعض الإشارات المتفرقة إلى التشبيه» (حمادي، 1981) وهذا شيء طبيعيّ؛ فالبحث البلاغيّ مازال في مرحلة النّشأة، وتفحصّه بدّقة، والنّظر فيه، يتطلّب ردحا من الزّمن، فجاءت دراسة "ابن عبيدة" كلُمَح بلاغيّة لا أكثر، والشّيء الّذي حريٌّ بنا أن نقوله، أنّ هذا المصطلح (المجاز) دلّ على شقّ جدّ مهمّ في الدّرس البلاغي، وبدايةٌ سيكون لها عظيم الفائدة في الأبحاث الّتي تأتي بعده.

ثمّ نجد مصطلح "البيان" في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ ت (255ه)، الّذي حوى آراءً وأفكارا قيّمة ساهمت بشكلٍ كبير في تطوّر البحث البلاغيّ، بل ويعدّه البعض (الجاحظ) المؤسّس الفعليّ للبلاغة العربيّة، «والجاحظ في كتابه البيان والتّبيين لم يحدد التعاريف البلاغية كما نفهمها اليوم، بل زرع في كتابه بذور

العلوم البلاغية التي نمت وازدهرت بفضل عناية علمائنا» (صباغ، 1998)فلا نجد البلاغة بحدّ ومفهوم ومصطلح تام.

جاء مصطلح "البيان" عند "الجاحظ" ليدلّ على مختلف صور الكلام غير العاديّ، أي الّذي يختلف في تركيبه وترتيبه عن باقي الكلام، «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما الفهم والفهم، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع» (الجاحظ، 1997)فغاية البيان أوّلا هو تحقيق الفهم والإفهام، وإلّا فلن يكون بيانا.

و الجاحظ يقرّ بأنّ اللّغة البليغة لابدّ أن تتوّفر على خصائص في الكلمة والمتكلّم والكلام، وهو ما أسماها بشروط الفصاحة، وقد رعى لبلوغ هذه الوظيفة الوسيلة، فالاكتفاء بالوظيفة دون الوسيلة، قد يؤدّي إلى نسف كلّ جهوده -الجاحظ- في إقامة معايير يتفاضل على أساسها الكلام (حمادي، 1981)

2. تطور مصطلح البلاغة (مرحلة التحديد والتصنيف)

ثم يطالعنا مصطلح "البديع" في كتاب البديع لابن المعتزّ ت (296ه)؛ إذ جاء ليدلّ على مختلف صنوف علوم البلاغة في هذا المؤلّف، «كتاب البديع نقطة تحول هامة في مسارات الدراسات البلاغية وعلامة بارزة في مجال النظرية الأدبية عند العرب [...] فهو بإجماع الباحثين عربا ومستشرقين أول كتاب جعل من البلاغة غاية تأليفه، ومحاولة فريدة لإرساء أصول البلاغة على أسس عربية صريحة» (حمادي، 1981) أي أنّ الدّرس البلاغيّ العربي بدأ يقيم لنفسه حدودا خاصة به تدريجيّا، «وجمع فيه سبعة عشر نوعا بديعيا، منها الاستعارة والكناية والتورية والتجنيس » (العدوس، 2007) ما يؤكّد أنّ التّفكير البلاغيّ في تطوّر مع الفرد العربيّ ومع كلّ مستجدّات بيئته.

ليزداد تطوّر الدّرس البلاغيّ مع "قدامة بن جعفر"**(337ه)**، وهو يبحث في مصنّفات الشّعر وأثر جمالها مستفيدا من جهود من سبقوه خاصّة "الجاحظ" و"ابن المعتز"؛ «حيث أضاف إلى ما ذكر ابن المعتز من أنواع البديع ثلاثة عشر نوعا فتممها ثلاثين نوعا» (العدوس، 2007)وهذه هي حال العلم "تكامليٌّ"، الثّاني يأخذ من الأوّل، والثّالث يأخذ من الثّاني...إلخ، «وقد استطاع قدامة أن يستخرج كثيرا من فنون البلاغة وهو يبحث في أسباب جودة الشعر أو رداءته» (الكواز، 2007) وهنا يظهر الشّعر كعامل رئيسيّ في تطوّر المصطلح البلاغيّ، وإن كان مازال شاسعا لا تحكمه ضوابط ومعايير دقيقة.

ثانيا: إسهامات المبرد في الدّرس البلاغي العربيّ:

المبرّد شيخ من شيوخ العربيّة، عاش في القرن الثالث للهجري، كانت له إسهاماته الخاصّة في الدّرس البلاغيّ العربيّ "وتتجلّى مساهمته في الكامل وفي رسالته في البلاغة" (حمادي، 1981) "وربما كان أهمّ ما تناوله المبّرد من ألوان بلاغيّة، الكناية، والتّشبيه، وأضرب الخبر" فكيف جاءت المادة البلاغيّة عنده؟ وكيف أفادت البلاغة من عطائه، وهو اللّغوي والنحويّ ؟

عرّف "المبّرد" البلاغة من خلال ردّه على سؤال أرسله إليه أحمد بن الواثق «أي البلاغتين أبلغ، أبلاغة الشعر، أم بلاغة الخطب، والكلام المنثور والسجع أيهما عندك أبلغ" فردّ عليه المبرّد قائلا "الجواب فيما سألت: أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النّظم، حتّى تكون الكلمة مقاربة أختها معاضدة شكلها، وأن تقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول» (المبرد، 1998)

جمع هذا المفهوم بين ثلاثة أقطاب كما نراها:

- إحاطة القول بالمعنى = إشارة إلى شرف المعنى

- اختيار الكلام = إشارة إلى شرف اللفظ
- النظم = مراعاة العاملين الأوّلين

ولا جدّة فيما قال به المبرّد في مفهومه للبلاغة، فالجاحظ قد أفاض في حديثه عن شروط الفصاحة وحسن اختيار الألفاظ، وجودة السّبك، حين قال: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الأعجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير" (الجاحظ، الحيوان، 1995) ولا يهمّنا هنا أن نخوض في قضيّة اللّفظ والمعنى، بقدر ما يهمّنا البحث عن نواحي الجدّة فيما قدّمه المبرّد، وأنّه قد تطرّق إلى مسألة البلاغة في مصنّفاته.

ضمّ كتاب "الكامل في اللّغة والأدب" للمبرّد شذرات متفرّقة عن مباحث بلاغيّة خالصة، مثل الالتفات والمجاز والاستعارة، وقد جاء الحديث عنها كلُمح وإشارات موجزة ومختصرة ومتفرّقة غير منظّمة، وهذه طبيعة التّصنيف والبحث اللّغويّ في بيئته وزمانه، وإنّما كانت الجدّة والطّرافة الّتي أتى بها المبرّد في مباحث بلاغيّة أخرى، وهي التّشبيه وأضرب الخبر والكناية كما سنعرض له.

1. **الالتفات**

من المفاهيم البلاغيّة والأسلوبيّة، وهو مصطلح تطوّر مفهومه واتّسع في الدّراسات الأدبيّة المعاصرة، وأكثر مصطلح يعبّر عنه، أو يتقاطع معه هو "الانزياح"، يقول المبرّد «والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب (...)» (المبرد، 1997) وهو لم يصرّح بالمصطلح، وإنّما بالمفهوم فقط والّذي يُلتمس نوعا من البلاغة فيه، وذلك للعدول الّذي يمسّ نظام الجملة، فيحدث ذلك دهشة لدى القارئ.

2. **المجاز:**

لم يُفرد المبرّد للمجاز بابا أو مبحثا ولم يسهب في الحديث عنه، وإنّما عرض له في شرح آيات من الذّكر الحكيم، رادّا الكلام إلى الحقيقة، مشيرا إلى مكمن المجاز الموجود في الآية ، يقول في ذلك: «ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النّحويّون، قال الله عز وجل ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ ، مجاز الآية أنّ المفعول الأوّل محذوف، ومعناه يخوفكم من أوليائه» (المبرد، 1997) فنلحظ الشّرح السّطحيّ والمبسّط للمجاز، وأنّه اعتمد في الإقرار به من خلال القاعدة النّحويّة.

ولم تكن الاستعارة بأكثر شأن من المجاز والالتفات في كتاب المبرد، وجاء الحديث عنها متفرّقا، غير دقيق ولا يوجد شرحا وفيّا لها، أمّا المباحث البلاغيّة الّتي تحدّث عنها الدّارسون، وأعطوا للمبرّد شرفا كبيرا في مباحثها، حتّى الريّادة في بعضها ما سيتم ذكره.

3. **التّشبيه:**

التّشبيه ضرب من ضروب علم البيان، يُعزى إليه البعض من الأسرار الجماليّة للّغة، جاء بكثرة في كلام العرب "والتشبيه جار كثيرا في كلام العرب، حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يُبْعِد" (المبرد، 1997) وقد تفطّن المبرد لهذا الفنّ البلاغيّ وتحدّث عنه بإسهاب ليكون صاحب الطّول على الأقل فيمن سبقوه، في دراسة هذا الأسلوب البلاغيّ، بطريقة تشدّ النّاظرين «وفصل الحديث في التشبيه تفصيلا لعله لم يسبق إليه» (ضيف، 1995)

فقد عقد المبرّد للتّشبيه بابا كاملا، افتتحها بأبيات شعريّة لشعراء عرب، ومن خلال الأبيات راح يشرح هذه الظّاهرة البلاغيّة، ثمّ يسترسل في جلب الشّواهد على البيت الواحد، داعما له، ومحلّلا ومشيرا إلى جوانب

الحسن والبلاغة فيه، بأبيات أخرى، أو بآيات قرآنيّة وقع فيها التّشبيه، ليكون ما تطرّق إليه كلاما له نصيبه في الخطاب الدّينيّ.

«والحقيقة أن التشبيه قبل المبرد كان موزعا في كتب السابقين، يصادفنا خلال حديث المؤلف عن موضوع بعينه قد يكون بعيدا كل البعد عن التشبيه، فيستطرد منه إلى مثال في التشبيه، أو تعقيب على بيت من الشعر تضمن تشبيها (...) وعلى كل فلم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرد هو القصد الأول الذي يرمي إليه المؤلف» (حسين، 1998) والأكيد أنّ هذا العلم لا يتأتى إلا لشخص عرف العربية وقرأها جيدا، فأن يدور في كلام العرب، ويدقق النظر للبحث عن شيء جمالي ومُميَّز في بنى كلامية ،يحتاج إلى قريحة لغوية فذة، ونظرة عميقة في ثنايا النص الشعري الجاهلي، ليستطيع التمييز بين روائع القصيد في أدق مضامينها البلاغية. وما يدل على تمعنه الجيد أثناء مجابهته لكلام العرب، التقسيم الذي جاء به لهذا الضرب، «والعرب تشبه على أربعة أضرب: فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام» (المبرد، 1997) وهو تقسيم لم يسبق إليه.

4. الكناية:

لم تحظ الكناية بالجدّة والطّرافة الّتي حظي بها التّشبيه في مؤلفات المبرّد «إن الكناية في الكامل لم تخرج عن الحدود التي رسمها اللغويون وعلماء البلاغة قبله، سواء في شقها اللغوي أو الاصطلاحي، إلا أنه جمع مسائلها في باب واحد» (حمادي، 1981) يذهب حمّادي صمّود إلى القول؛ إنّ ما أتى به المبرّد في باب الكناية مكرور لا جدّة فيه، إلّا جمع مسائلها في باب واحد، والمقصود بالمسائل أضرب الكناية، «الكناية تقع على ثلاث أضرب

أحدهما: التعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدي:

أكني بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكتتم

ويكون من الكناية – وذلك أحسنها- الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله –وله المثل الأعلى

﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾

والضرب الثالث من الكناية: التفخيم والتعظيم، ومنه اشتقت الكنية وهو أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه» (المبرد، 1997) هذا التّقسيم يمدحه الباحث "عبد القادر حسين" ويرى فيه تقسيما لم يسبق إليه "أما الكناية عند المبرد فقد اهتم بها الدارسون، نظرا لأنه قسمها إلى أقسام ثلاثة وهذا التقسيم لم يعرف عند أحد من السابقين (...)(حسين، 1998) أن المبرد قد انتفع بما ذكره ابن قتيبة في الكناية وسار على نهجه والقول أنّه سار على نهج "ابن قتيبة" لا غرابة فيه، ولا إنكار أنّ المبرّد لم يأت بالجديد في مسألة الكناية، فالتّقسيم الّذي أورده في كتابه الكامل إحالة مباشرة إلى حتميّة التّنظيم في بعض المسائل الّتي عرفت شيوعا في الوسط الأدبي، ولابدّ من التّصنيف والتّحديد.

5. أضرب الخبر:

لم يفت المبرّد وهو اللّغويّ، المعاني المختلفة الّتي تؤدّيها البنية الواحدة بجوار البنى اللّغويّة الأخرى إنْ دخلت عليها، إذ تؤدّي إلى إنتاج دلالة جديدة، لا توجد دون توظيف ذلك الرّابط اللّغويّ، «روي عن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى العباس وقال له، إني لأجد في كلام العرب حشوا فقال له أبو العباس في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، قم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله

لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني فما أحار الفيلسوف جوابا» (الجرجاني، 1992)ليكون المبرّد أوّل من أشار إلى أضرب الكلام في العربيّة، وملاحظته الدّقيقة لاختلاف التّشكيل الجمليّ، من خلال متغيّرات تدخل على نظام الجملة.

إنّ هذه المعاني المختلفة الّتي قال بها المبرّد، قد سمّاها البلاغيّون المتأخّرون بأضرب الخبر، وهي الحالة الّتي يرد عليها الخبر، فدخول حرف التّوكيد "إنّ" على الجملة الأولى، أدّى إلى تأكيدها، ليزداد التّأكيد تأكيدا وقوّة في الجملة الثّالثة، ثمّ يلاحظ اختلاف النّبر بين هذه الجمل، ومتى كان هناك اختلاف ،كانت هناك جدّة في المعنى ودلالة أخرى.

فقولنا زيد قائم فهو خبر ابتدائيّ. إنّ زيدا قائم فهو خبر طلبيّ. وقولنا إنّ زيدا لقائم فهو خبر إنكاريّ.

وعليه فإنّ اسهامات "المبرّد" في الدّرس البلاغيّ جليّة وظاهرة، فقد فتح الباب لدراسة أخرى ستأتي بعده لتكمل ما قاله، خاصّة في مسألة التّشبيه، وأضرب الخبر، وهي اسهامات تثبت على موسوعيّة التّفكير اللّغويّ عند هذا الرّجل، النّاقد واللّغويّ والبلاغيّ والأدبيّ.

ثالثا: إسهامات ابن جني في الدرس البلاغي العربي:

ينتمي ابن جني إلى بيئة اللّغويّين والنّحويّين، انحصر أكبر اهتمامه العلميّ في المسائل اللّغويّة للعربيّة، في أبنيتها ،وتراكيبها، ومختلف صور إنتاج الدّلالة في هيئة مستقيمة ، وقد روت لنا كتب الأدب حرصه وصرامته في توجيه كلام الشّعراء وتقعيد كلامهم بحسب ما تقتضيه القاعدة أو اللّغة المعياريّة، يقول "ابن جني": «الشِّعر مَوْضِعُ اضطرار، ومَوْقِفُ اعتذار، وكثيرًا ما يُحَرّفُ الكَلِمُ عن أبنيّته، وتُحَال فيه المثُل عن أوضاع صِيَغِها [...]

أَبُوكَ عَطَاءٌ أَلْأَمُ النَّاسِ كُلِّهِم

وهو يريد عَطَيَّةً، وقالت امرأة تُرثِي ابنا لها يُقَال له حَازُوق:

أُقَلِّبُ طَرَفِي فِي الفَوَارِسِ، وَلَا أَرَى حِزَاقًا عيني كالحجارة من القطر» (جني، 2000)

حين يكون "ابن جني" بهذه الحمية على نظام اللّغة، مبرّرا ومؤوّلا لكلّ خروج عن نمطيّة اللّغة العادية، فكيف كان إسهامه في اتّجاه يعنى بالجماليّة والفنيّة للأداء الكلاميّ، ولو كان على حساب قواعد اللّغة؟ أو بسؤال آخر كيف تجلّى إسهام "ابن جني" في خدمة الدّرس البلاغيّ؟

1. قضية اللّفظ والمعنى:

تبنّى "ابن جني" رأيا خاصًّا في قضيّة اللّفظ والمعنى، هذه القضيّة الّتي أضحت كالعرف يتناوله كلّ من عزم النّظر في مسائل البلاغة، «وابن جني يتناول قضية اللفظ والمعنى فيلبسها ثوبا جديدا خالف فيه السابقين جميعا فالسابقون من حيث لا يخرج أحدهم إما من اعتبار الجمال في اللفظ دون المعنى كالجاحظ أو المعنى دون اللفظ كأبي عمرو الشيباني والآمدي، أو في المعنى واللفظ معا كبشر بن المعتز وابن قتيبة والرماني» (حسين، 1998) وقد جاءت هذه الطّرافة والجدّة في رأي بن جنّي حين جعل اللّفظ خادما للمعنى، وأنّ اللّفظ لابدّ أن يكون شريفا لأداء المعنى المطلوب «فقد رأيت ـ بما أوردناه ـ غلبة المعنى للفظ، وكون اللفظ غالبا له، مشيدا به، وأنه إنما جيء به له، ومن أجله» (جني، 2000)

يقول "ابن جني" في كتابه الخصائص : "باب في الرد على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني «وذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب تارة أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها استرارها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقا إلى إظهار أغراضها، ومراميها أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد [...] فإذا رأيت

العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه به» (جني، 2000) نستأنس من هذا القول أن المعنى جوهر اللّغة وخاصيّتها الأولى، لا يظهر إلى الوجود إلّا إذا كانت الألفاظ في مرتبة المساس بذلك الجوهر، وإخراجه في أسمى حلّة له، ولا يتأتّى هذا إلّا بالعناية بالألفاظ أوّلا، وهذه العناية أقرّها المعنى. «إلا أن العناية باللفظ عنده لازمة، فبدون الألفاظ لا يمكن إبراز المعنى وتوضيحه، وإصلاح الألفاظ وتهذيبها ومراعاتها أمر يحتمه التعبير، لأن الألفاظ عنوان المعاني، وكالوعاء لها وإصلاح الوعاء، وتحسينه قصد به الاحتياط له، (...) وهذا المعنى الشريف الفخم يتعذر الحفاظ عليه، والاحتياط له، إلا إذا حملته ألفاظ موشاة مذبجة حظيت من الحال بقسط وافر» (حسين، 1998)

إنّ هذا الموقف الّذي أتى به "ابن جني" يدلّ على تمكّنه في مسائل العربيّة، وعلى الحسّ النّقديّ والبلاغيّ الّذي يمتلكه هذا اللّغويّ، فأن يعمد الشّاعر إلى زخرفة لفظيّة، ويجتهد في سبك الألفاظ، ويجابه القصيدة بيتا بيتا، إلّا من أجل إخراج شيء كَبُر شأنه، من الباطن إلى الظّاهر في أحلى صورة، ثمّ إنّ الشّاعر يعمد إلى قول كلام لا يفهم إلّا بالتّأويل لعمق الصّورة الفنيّة، وعلى عمق هذه الاستعمالات يكون المعنى في طيّاتها.

إذن فرأي "ابن جني" في قضيّة اللّفظ والمعنى فيه طرافة وجدّة، فيه تنبيه إلى تقدّم المعنى في النّفوس، يظهره اللّفظ المختار في أكمل صورة، لتكون الدّلالة عنده، جمع بين اللّفظ والمعنى معا، مع غلبة المعنى، وفي هذا تزكية منه في الدّرس البلاغيّ، وتنبيه للعلماء الّذين يأتون من بعده لإعطاء روح جديدة للقضايا البلاغيّة.

2. **شجاعة العربيّة**

يفرد ابن جنّي في كتابه الخصائص بابا يعنونه بـ: "شجاعة العربيّة"، وهذه تيمة تحيلنا إلى مسحة بيانيّة فيه، وإنّا نعتبرها كناية عن شيء له خصوصيّة في اللّغة العربيّة، وإن كان، فإنّه سيكون في بناء نظامها والكيفية الّتي تتشكّل بها، لتوليد الدّلالة في حدّ يشبه الشّجاعة، والمخالفة لكلّ اعتياديّ، وهذا ما نجده في تفصيله لهذا العنوان.

يقول ابن جنيّ «اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف» (جني، 2000) (والظاهر أن هذه مباحث لغوية ونحوية، ولكن حين نربطها بعنوان الباب تحيلنا إلى شيئ آخر يود أن يقوله "ابن جني"، والحق أنها كلها انحرافات عن القاعدة الأصل، تقع في المستوى التركيبي للغة، وهي مباحث نحوية خالصة أدرجت في مباحث علم المعاني لاحقا، لتضمنها سر بلاغي، إذ تتفتق من هذه التراكيب مضامين جمالية، لا نرى لها نضير في المستوى الأصلي، «إن الشجاعة نوع من الاختيار الأسلوبي، إنه الاختيار المخالف لأصل القاعدة أو لمقتضى ظاهر الكلام» (مشبال، 2007)

إنّ هذا العدول في هذا المستوى ما هو إلّا اختلاف في التّوظيف اللّسانيّ للبنى الكلاميّة، يترتّب عنه دلالة جديدة، تضاف إلى خاصيّة اللّغة العربيّة، هي الوظيفة الجماليّة والفنيّة، الّتي تخترق القاعدة النّحويّة بشكل يؤثّر في المتلقّي، إذ يعمل إلى تأويل هذا التّركيب المخالف للأصل بسؤال : ما غاية المرسل من هذا التّركيب؟

«ولعل مفهوم شجاعة العربية الذي أفسح له ابن جني حيزا كبيرا في كتابه الخصائص أن يمثل الأصل الجمالي الذي يكشف عن الصفة الإبداعية الكامنة في اللغة العربية، ذلك أنها تضع بين يدي الشاعر إمكانات لغوية غنية لصوغ تعبيرات تتجاوز القواعد القياسية» (مشبال، 2007)

وهكذا تتلاقى البلاغة مع النّحو، فحين ينتهك النّحو، تولد البلاغة وتتطاول عليه في لحظة تجربة أدبيّة أو شعريّة.

3 . المجاز:

جاء مفهوم "ابن جني" للمجاز من خلال مقابلته بمصطلح الحقيقة «الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة والمجاز ما كان بضد ذلك وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة» (جني، 2000) فالمجاز عنده ما خالف أصل اللّغة، أو المعنى الأوّل الّذي وضعت له اللّفظة، ويشمل المجاز مختلف أضرب إنتاج الصّورة الفنيّة من استعارة وكناية وتشبيه. والمجاز قد قيل فيه مصنّفات منذ القرن الثّالث، فهو مبحث أقرب إلى روح البلاغة الّتي يتمرّس فيها مثل هذا الضّرب، المشبّع بطاقة تخيليّة، تتجاوز الحقيقة ولا يدرك إلّا بالتّمعن الطّويل في تركيبه.

يعطي ابن جني هنا صورة قارّة ما للمجاز من بلاغة، فهو اتّساع في اللّغة،؛ إذ يعطي دلالة إضافيّة إلى المعنى الأوّل، وتوكيد للمعنى الثّاني بمعنى طريف يؤدّى بطريقة مخالفة للحقيقة، والتّشبيه يقع حين يراد الإتيان بشيء يوجد في المعنى الجديد وإسقاطه على المعنى الأوّل.

وما نلاحظه في تفكير "ابن جني" هو التّقعيد المنظّم والممنهج في مسائله، والدّقة في كتاباته، فقدر رأينا كيف جاء "المجاز" عند "المبرد" في شكل لمح بسيطة غير عميقة، وكيف كان أكثر دقّة وشرحا عند "ابن جني"، وكلّ منهما قد ساهم في إثراء البحث البلاغيّ العربيّ

II. نتائج الدراسة

إن من هم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة، ما يلي:

عقد المبرّد للتّشبيه بابا كاملا، وفصل الحديث فيه تفصيلا لم يُسبق إليه

صُنّفت وحُدّدت الكناية عند المبرّد، وجُمعت في باب واحد، وهو تصنيف لم يُسبق إليه.

أضرب الخبر من أهمّ وأبرز مباحث علم المعاني الّتي تفطن إليها المبرّد، وأدرك الفروقات الكلاميّة في مستوى الجملة، ليكون أوّل عالم عربيّ يشير إلى هذه القضيّة البلاغيّة.

ساهم "ابن جني" في إثراء قضيّة اللّفظ والمعنى، وبرز عنده رأي جديد مال إلى المعنى، لكنّ بضرورة الاهتمام باللّفظ وتحسينة وتهذيبه خدمة للمعنى.

مصطلح شجاعة العربيّة من المفاهيم البلاغيّة الصّرفة، الّتي جاءت عند ابن جني لتدلّ عن خروج الكلام عن القاعدة المعيار، لتحقيق غاية جماليّة، وهو مصطلح لم يُعرف له من قبل سَمَيَا.

وكلها نتائج تتسق مع الفرضيات المقترحة في مقدمة هذا المقال، حيث كانت إسهامات هذين العالمين لها من الجدة والطرافة، ما خدمت الدرس العربي، وما خدم علماء العربية الذين جاءوا بعدهما، وكان أبرزهم عبد القاهر الجرجاني.

III. خاتمة:

لقد تطوّر الدّرس البلاغيّ العربيّ طيلة سبعة قرون كاملة، ومع تطوّر المصطلح البلاغيّ تطوّرت مباحثها، من عَالِم إلى آخر، وهذا ما وجدنا له تمثيلا عند عالمين جليلين من علماء العربيّة، هما "المبرد وابن جني"، وقد استطعنا أن نتلمّس أثر جهودهما في الدّرس البلاغيّ، بل الإسهامات الجادّة الّتي لم يقلها البلاغيّون

قبلهما، وبذلك أفادت البلاغة العربية من عطائهما، في نواحي مختلفة، مست علم المعاني والبيان خاصة، من قبل أضرب الخبر، والتشبيه، وشجاعة العربية والمجاز، نحصي هذه الجهود في النقاط الآتية:

- الالتفات وارد في كلام العرب، وهو من الأساليب البلاغية التي إن استعملت في موضعها زادت الكلام خصوصية، وجعلت المتلقي ينتبه، ويقوي نظره، ويبحث في دلالته.
- لا يخلو الكلام العربي من التشبيه، وهو أكثر كلامهم، لذلك نجد المبرد من البلاغيين الأوائل السابقين، الذين قالوا في التشبيه القول المفصل، والجدة في الطرح والنظر والتحليل، فقسم تقسيما دقيقا، وسمي بأسماء لم يعرف الدرس البلاغي لها من قبل سميا.
- إن للعربية أضربا كلامية، وبها يميز خطاب كلامي عن آخر، وهي (أضرب الخبر) من الأبواب البلاغية دقيقة المسلك، لأنها تختصر بوحدات لسانية قليلة (أدوات توكيد، جمل إسمية، أدوات نحوية)، قيما دلالية وأبعادا خطابية، من شأنها التأثير في العملية التواصلية بين المخاطِب والمخاطَب.
- التقديم والتأخير والحذف من ضروب شجاعة العربية، لما تحمله هذه التراكيب النحوية من عدول عن مستوى اللغة الأول، إلى مستوى ثان، هو مستوى البلاغة الإبداع.

الإحالات والمراجع:

- المؤلفات:

أحمد مطلوب. *البلاغة والتطبيق*، دون دار نشر، العراق: دون دار نشر. 1999، ص18، 22

الجاحظ(. الحيوان، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1995 .الحيوان .، 17 .

الجاحظ .(البيان والتبيين76 .مكتبة الخانجي، مصر، مكتبة الخانجي، 1997، ص 76.

الجرجاني ,ع .ا ..دلائل الإعجاز.، مطبعة المدني، مصر، مطبعة المدني، 1998 ، ص 315.

العدوس ,ي .أ ..مدخل إلى البلاغة العربية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2007، ص 15

الكواز ,م .ك .البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، مؤسسة الانتشار العربي، 2006، ص 235.

المبرد: .الكامل في اللغة والأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1997م، ج (02) ص 84،ص 216، ج (03) ص 17، ص 95، ج (04) ص 104 .

المبرد .(1998) .البلاغة، مكتبة الثقافة الريفية، القاهرة، مكتبة الثقافة الريفية، 1985، ص 80- 82. ،

جني ,ا ..الخصائص، دار الكتب المصرية، مصر، دار الكتب المصرية، 2000، ج(1) ص 237، ص 215- 216، ج (02) ص 208، 360، ج (3)، ص 188 .

حسين ,ع .ا ..أثر النحاة في الدرس البلاغي.، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، 1998، ص 212

حمادي. صمود: *التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الدار التونسية*. تونس: الدار التونسية.، 1991، ص 24، 25، 91، 92، 157، 372، 343، 371

صباغ ,م .ع ..البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيان للجاحظ.، المكتبة العصرية، بيروت، المكتبة العصرية، 1998، ص 141.

ضيف ,ش ..البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، دار المعارف، 1995م، ص 60 .

مشبال ,م ..البلاغة والأصولأفؤيقيا الشرق، المغرب، أفريقيا الشرق، 2007، ص 116، ص 59، .